- **الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر قبل الاستقلال:**

لقد كان الهدف من العمل الأنثروبولوجي لدى هؤلاء الأنثروبولوجيين هو تفكيك البنيات الاجتماعية والثقافية لهذه الشعوب باستخدام المناهج التي أتاحتها المنهجية العلمية في مجال العلوم الاجتماعية، وبما يجعل المعرفة التي يتم إنتاجها معرفة عميقة من شأنها أن تساعد النظام الاستعماري في بسط هيمنته على هذه الشعوب، لكن هذا لا يعني أن المعارف المقدمة حول هذه الشعوب هي معارف صادقة بالمرة، ذلك أن عمليات التنظير كثيرا ما انحرفت عن الواقع بحيث حاولت تشكيل "واقع مثالي" يخدم بالكاد الإدارة الاستعمارية ولا يمت إلى "الواقع الموضوعي " بأية صلة، ذلك ما نلمسه فيما قدمه "فيليب لوكا " و" جون كلود فاتان " في كتابهما " **جزائرالأنثروبولوجيين"** حول الأنثروبولوجيين المزيفين الذين قدموا صورة خيالية عن المجتمع الجزائري خدمة للمصلحة الاستعمارية.

ومما حاول الاستعمار إقراره في الجزائر والمغرب العربي عموما تقسيمه للمجتمع إلى أجزاء متصارعة كالقبائل والعرب والسكان المستقرين والرحل. ،.. فالفرضيات التي كان ينتجها الباحثون الأنثروبولوجيون كانت " متطابقة مع فرضيات السياسة الاستعمارية التي تعتبر أن السكان المستقرين سيكونون أقل رفضا للتدخل الاستعماري، كما كان التدخل يسعى إلى استغلال التنوع الإثني استغلالا سوسيولوجيا. [1]

لقد أنجز الباحثون الانثروبولوجيون بحوثهم ونظّروا لمجتمعات المغرب العربي ببذلة عسكرية، فلقد كان النموذج السائد في مجال البحث هو نموذج الباحث العسكري الذي يستخدم العلم من أجل المصلحة الاستعمارية، ومن أهم التجارب البحثية في هذا السياق ما ذكره جاك بيرك في مقال بعنوان " مائة وخمس وعشرون سنة من علم اجتماع الشمال إفريقي " ونقلها عنه محمد نجيب أبو طالب " الأعمال البحثية التي أنجزها كل من هانوتو ولاتورنو وغوتي وكاريت وبيليسي حول الجزائر ومونتاني حول المغرب" [2]

فكاريت وبيليسي (" carette et pelissier") اضطلعا رفقة عسكريين آخرين ببحث واسع النطاق حول الجزائر جمعوا خلاله معلومات غزيرة قدرت ب" قرابة أربعين مجلدا.[3] وخلال هذا البحث استدعيت التخصصات والعلوم كالتاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية والفيزيائية والحفريات لكي توفر نظرة أمينة ما أمكن عن الآخر أي هذا العربي أو البربري بما أنهم ينكرون عليه أية تسمية أخرى. [4]

---

[1]- - محمد نجيب أبو طالب، **سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي** . مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، لبنان، 2002 ، ص ص35 36.

[2]- المرجع نفسه، ص 34.

[3]- - فيليب لوكا وجون كلود فاتان ، **جزائر الأنثروبولوجيين- نقد السوسيولوجيا الكولونيالية** ، ترجمة محمد يحياتن وبشير بولفراق، ووردة لبنان - منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال - الجزائر - ص 09 .

[4]- المرجع نفسه، ص 09.

وقد وجدوا بموضوعية زائفة أن الجزائري همجي متوحش بعيد عن الحضارة، وذلك من خلال استقصاء العديد من النقاط التي تعتبر مكمن التخلف الأساسي وعلى رأسها المرأة والدين والجمعيات الدينية، كما تم تناول هذه النقاط والقضايا من خلال بعض الثنائيات ومقابلة أطرافها بوصف الطرفين ومقارنتها مع تغليب الكفة التي تخدم السياسة الاستعمارية كمقابلة العرب بالبربر ووضع المرأة في الشريعة والحياة والمرأة العربية والبربرية. ..الخ.

ومن الأطروحات التي حاول الاستعمار اللعب عليها في سياق عملية التفريق بين أهل البلد الواحد نجد محاولات التفريق بين العرب والبربر في الجزائر مع محاولة تقريب البربر ليكونوا بمثابة حليف داخلي وخاصة عند بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر لأن هذا " البربري" لم يعد يحظى بذات القيمة في الكتابات الانثروبولوجية الاستعمارية عند استقرار الاحتلال حتى لا يكون منافسا للمعمرين كعنصر جديد يريد فرض ذاته وهويته على الأرض الجزائرية، وقد وردت خلال هذه الأطروحات بعض المعلومات تقضي بأن " العربي يتميز بشعر وعينين سوداوين، أما القبائل فأغلبهم ذوو عينين زرقاوين وشعر أشقر وأشد بياضا، كما يتميز العربي بكرهه للعمل فهو كسول، ولا يهتم طوال السنة إلا بإشباع شهواته، أما القبائلي فهو يعمل ويكد طوال الموسم ويعتبر الكسل عارا مهينا . [5]

إضافة إلى هذا تزيد هذه الأطروحات أن هناك عداوة وكرها بين العرب والبربر، فالواقع يبرز بشكل واضح – حسبهم – أن " القبائلي يكره العربي والعربي يكره القبائلي، فهذا المقت المتأجج لا يمكن تفسيره إلا بشعور تقليدي توارثته الأجيال، كره بين عرق الغزاة (أي العرب) والعرق المقهور (أي القبائل) ، كما أن عملية التفريق بين العرب والبربر تمت أيضا على مستوى المرأة فوصفت المرأة " القبائلية " بالنظافة مقابل وصف المرأة العربية بالقذارة : " المرأة العادية عند العرب عموما قذرة، أما المرأة القبائلية فهي أكثر نظافة وتعد هندامها مرتين في اليوم، في الصباح تنظف جسمها، وفي المساء تكثر من عملية الزينة والحنة . [6]

---

[5]- المرجع نفسه، ص 113، 114.

[6]- المرجع نفسه، ص 118.